

276326 - تفسير قوله تعالى: {فما لكم في المنافقين فئتين}، وبيان سبب نزولها .

السؤال

برجاء تفسير بعض الآيات من سورة النساء بداية من قوله تعالى: (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا) الآية إلى قوله تعالى: (وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)، وهل هناك سبب نزول لهذه الآيات؟

ملخص الإجابة

هذه الآيات نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة. وقد نهى الله أهل الإيمان أن يوالوهم إلا بعد أن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام، (فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا) [النساء: 89]، والهجرة لا بد أن تكون في سبيل الله !

الإجابة المفصلة

أولاً:

سياق الآيات، وسبب نزولها:

يقول تعالى: (فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَذُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَوْهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا * سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَحُذَوْهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) [سورة: النساء/88-91].

أورد جمهور المفسرين عدة أسباب لهذه الآيات، وأصحها، ما قال مجاهد - رحمه الله -: (نزلت في قوم خرجوا من أهل مكة حتى أتوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون فارتدوا واستأذنوا النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الرجوع إلى مكة ليأتوا ببضائع، فاختلف فيهم المؤمنون، ففرقة تقول إنهم منافقون وفرقة تقول هم مؤمنون فبين الله -

عَزَّ وَجَلَّ - نفاقهم)، وانظر لمزيد من التحرير حول أسباب نزول الآيات، المحرر في أسباب النزول، للدكتور خالد المزيني: (414 /1).

ثانيًا:

معنى الآيات الكريمة:

جاء في المختصر في تفسير القرآن، في تفسير هذه الآيات: " 88 - ما شأنكم -أيها المؤمنون- صرتم فريقين مختلفين في شأن التعامل مع المنافقين: فريق يقول بقتالهم لكفرهم، وفريق يقول بترك قتالهم لإيمانهم؟! فما كان لكم أن تختلفوا بشأنهم، والله ردهم إلى الكفر والضلال بسبب أعمالهم، أتريدون أن تهدوا من لم يوفقه الله إلى الحق؟! ومن يضل الله فلن تجد له طريقًا إلى الهداية.

89- تمنى المنافقون لو تكفروا بما أنزل عليكم ، كما كفروا ، فتكونون مستوين معهم في الكفر، فلا تتخذوا منهم أولياء ، لعداوتهم ، حتى يهاجروا في سبيل الله من دار الشرك ، إلى بلاد الإسلام ، دلالة على إيمانهم، فإن أعرضوا واستمروا على حالهم ، فخذوهم واقتلوهم أينما وجدتموهم، ولا تتخذوا منهم وليًا يواليكم على أموركم، ولا نصيرًا يعينكم على أعدائكم.

90- إلا من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم عقد مؤكد على ترك القتال، أو من جاؤوكم وقد ضاقت صدورهم ، فلا يريدون قتالكم ، ولا قتال قومهم، ولو شاء الله لمكنهم منكم فقاتلوكم، فاقبلوا من الله عافيته، ولا تتعرضوا لهم بقتل ولا أسر، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم، وانقادوا إليكم مصالحين تاركين قتالكم، فما جعل الله لكم عليهم طريقًا بقتلهم أو أسرهم.

91 - ستجدون -أيها المؤمنون- فريقًا آخر من المنافقين يظهرون لكم الإيمان ليأمنوا على أنفسهم، ويظهرون لقومهم من الكفار الكفر ، إذا رجعوا إليهم ، ليأمنوهم، كلما دُعوا إلى الكفر بالله والشرك به : وقعوا فيه أشد الوقوع، فهؤلاء إذا لم يتركوا قتالكم، وينقادوا إليكم مصالحين، ويكفوا أيديهم عنكم؛ فخذوهم واقتلوهم أينما وجدتموهم، وأولئك الذين هذه صفتهم جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة؛ لغدرهم ومكرهم “.

يقول الشيخ السعدي: " المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم.

فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ، ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم ، وأن تكونوا مثلهم.

فإذا تحققتم ذلك منهم (فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ) وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم ، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم فإذا هاجروا : جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل مَنْ كان معه ، وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأنتهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها (فَحُذُّوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) أي: في أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فِرَق:

فرفقتين أمر بتركهم ، وحتم على ذلك، إحداهما : من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال ، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم (حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ) أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك في قوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ) .

فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء .

فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم ، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم .

والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

(فَ) هؤلاء : (إِنْ اغْتَرَّزْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا).

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: (سَتَجِدُونَ آخَرِينَ) أي: من هؤلاء المنافقين. (يُرِيدُونَ أَنْ يُيَاقِلُوكُمْ) أي: خوفا منكم (وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُزُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا) أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رعوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم ، لا خوفا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احترامًا، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح

اتضاحًا عظيمًا اعتزال المؤمنين ، وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: (فَإِنْ لَمْ يَغْتَزِلْوْكُمْ وَيُلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ) أي: المسالمة والموادعة (وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَحُدُوهُمْ وَأَفْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتُمُوهُمْ وَأُولِيكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم، تفسير السعدي: (191).

الخلاصة :

أن هذه الآيات نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة.

وقد نهى الله أهل الإيمان أن يوالوهم إلا بعد أن يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام، (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا) [النساء: 89]، والهجرة لا بد أن تكون في سبيل الله !

والله أعلم .